أبو شادى

نحن أمام شاعر قد اختلف فيه الناس اختلافًا كبيرًا ، وتضاربت فى أمر شاعريته الآراء : فقوم يقررون شاعريته ويقولون إنه من أقدر شعراء الجديد ، وقوم آخرون ينكرون عليه هذه الشاعرية ، ويزعمون أنه لا يراعى حرمة اللغة ولا يحافظ على رونق الديباجة العربية . والواقع أن شاعرًا كأبى شادى ، حقيق أن يثير مثل هذه الضجة ، ذلك لأنه فاجأ الطبع العربى فى جرأة عجيبة ، غير مكترث بما قد يصير من نتائج هذه الجرأة العجيبة . والفكر الإنسانى عامة والطبع العربى خاصة بطىء التحول ، كثير الإبقاء على ما يسميه الناس بالتقاليد الموروثة والعادات المرعية ، شديد اللصوق بما ألفه فى الأجيال المتتالية ، فكل من تحدثه نفسه بالخروج عن ذلك المألوف يعرض نفسه لاستنكار هذا الطبع المحافظ ، حتى ولو كان فى خروجه الخير كل الخير لهذه اللغة الشريفة ! كان أبو شادى جريئًا جدًّا فى إخراج شعره الجديد على الناس فى هذا الزمان ، ولقد تقدمه قوم

مهدوا لخطوته الواسعة وألحقهم بالذكر الأستاذ خليل مطران الذى يقول أبو شادى إنه أستاذه ، بيد أن الواقع الذى لا مرية فيه أن حركة مطران التجديدية الأولى ، برغم ما أثارته من زوابع ومعاكسات من شيعة الطبع التقليدىّ ، لم تكن فى جرأتها وغرابتها كحركة أبى شادى الأخيرة .

ولعل حياة أبى شادى هى السبب المباشر فى هذه الجرأة العجيبة : فلقد نشأ أبو شادى نشأة الشاعر فى بيت علم وأدب ، ووهبته الطبيعة شعورًا رقيقًا وخلقًا رضيًا ، وكان أن حن إلى الأدب حنينًا عظيمًا ، ومال إليه بجماع مشاعره . والحق أن فى شعر أبى شادى الكثير من روح أستاذه ، فيه هذا الحرص على الدقة فى المعنى ، وفيه هذه الثورة الواضحة على اللفظ والرنين الفارغ ، وفيه هذه العناية الفائقة بالناحية القصصية التى بعثها فى هذه اللغة الشاعر خليل مطران . ويستقل أبو شادى بعد ذلك بروحه الصوفية العجيبة ، وبقلبه العالمى الكبير ، وبحبه الشامل للطبيعة وما فيها من مفاتن ومباهج .

اختلف الناس وما يزالون مختلفين فى أمر هذا الشاعر كما قدمت ، والواقع الذى ليس إلى إنكاره من سبيل أنهم جميعًا لم يتفقوا على رأى واحد فيه ، والحق أن أبا شادى شاعر وشاعر بارز بين شعراء

هذا الجيل . لقد كثر إطلاع أبى شادى على الشعر العربى قديمه وحديثه ، ولا يكاد يظهر فى السوق ديوان لشاعر من الشعراء حتى يكون أبو شادى أول قارئ لهذا الديوان ، ولقد طالع كذلك الشعر الفرنجى ، ونفذت معانيه إلى قلبه فى سهولة ويسر . ولم يقف اطلاع هذا الشاعر عند دواوين الشعراء فقط ، وإنما تعدى ذلك إلى التاريخ القديم والحديث ، وعنى عناية خاصة بتاريخ قدماء المصريين واليونان ، ثم درس أصول الأدب الإغريقى ، وذاكر مذاهب الفصاحة والبيان عند الأوربيين على اختلاف أنواعها مذاكرة مجدية موفقة .

يعيب البعض على أبى شادى إغفاله الرنين الموسيقى فى قصائده ، ويعيب عليه بعض آخر خروجه على قوالب التعبير التى اصطلح عليها الناس أوكادوا يصطلحون ، وهؤلاء وأولئك يظلمون الرجل أى ظلم ، فما كان لمثله وهو الشاعر الواقف على أحدث التيارات فى الشعر العالمى أن يتقيد بقيود الرنين وغيرها مما يزعم القوم أنها من ضرورات النظم العربى .

ويزعم فريق آخر أن أبا شادى ينهج فى شعره نهجًا أعجميًّا لا يمت إلى النهج العربى بسبب . والباحث المخلص لا يسلم بهذه النظرة المخطئة ، فعند أبى شادى ديباجة عربية ترتفع فى بعض

قصائده إلى مرتبة الفحول المتقدمين ، ومثل على هذا قصيدته «الشعلة» بديوانه المسمى بهذا الاسم التى يقول فيها :

أيشعل نيران التطاحن غاشم
ويغفل عن نشر الحقيقة عالم ؟
هلم يراعى ! ولتكن أنت شعلة
تضىء سبيل الرشد ، فالرشد ناقم !

والحق الذى لا مرية فيه أننا أمام شاعر واسع نطاق الفكر . جبار الخيال . ونحن قوم ضاق خيالنا لاستتباب حياتنا وهدوئها ولتمتعنا بجو رائق على نقيض أهل أوربا الذين يكابدون فى الأغلب عنت الأجواء وقسوة الطبيعة وضراوة المعيشة وإمحال التربة . فهم واسعو الخيال لخوفهم ولعدم استقرارهم . ومن هنا راح القوم ينعتون كل شعر واسع الخيال بعيد التصوير غامض التفكير بأنه أعجمى ! وما كان هذا الشعر بأعجمى كما يدعون . وإنما هو شعر جديد على الشعر العربى الذى ألفه الناس القرون الطوال : شعر فيه نفوذ إلى ما وراء القشور البيانية المصنوعة . وفيه تغلغل إلى أعماق الغرائز والطبائع البشرية . وفيه بحث عن تائه ضال . وفيه نشدان الحقيقة الواحدة المتوارية عن الأبصار . ومجال الخيال فى كل ذلك مجال واسع

لا يحصره حصر ، ولا يقفه تلاعب بالألفاظ ، ولا تجد منه البريق اللفظى الخاطف الخلاب . وهكذا أبو شادى لا يأبه للقشور ، ولا يقف عند بهرج الصناعة ، ولكنه ينحدر كالسيل الجارف من قلل الجبال ، حاملا معه الرمال الدقيقة والجواهر الكريمة ، وهو يكتسح كل ما يعترضه فى الطريق ، ثم ينبسط أخيرًا على أرض الوادى فى هدوء ! شعره سيل عرم ، ما فى ذلك شك : فهو يتناول فيه كل ما وسعت الحياة من معان ورموز ، وينقل على لوحته بريشته السريعة الحركة صور العيش السافرة والمقنعة قاطبة ، وتجىء بعض صوره لذلك غامضة أو ناقصة الخطوط أو مظلمة الألوان ، ولكنها تبقى بعد ذلك كله ذات طابع خاص مستقل كل الاستقلال عن سواها من الصور التى قد تعترض سبيلك فى حياتك الخاصة .

والعجيب من أمر هذا الشاعر أنه يمزج الخيال بالواقع فى شعره الكثير مزجًا لا تحس معه اضطرابًا ولا تلمس تنافرًا . والواقع أن هذا الفنان يعيش عيشة يمزج فيها بين الحقيقة والخيال ، وما شعره إلا المعبر الصادق عن حياته جميعًا فى أطوارها وظروفها المختلفة . وليس عبثًا هذا الإنتاج الهائل الذى تفيض به هذه الشاعرية المسحة فى كل ظرف وفى كل مكان . وأقل ما يوصف به أنه مؤرخ صادق لحياة الشاعر الحقيقية : فهذا الشاعر لا يقصر عن التعبير عن حالاته النفسية

فى كل الأوقات ، ولا يتردد فى النظم فى الترام أو القطار ، بل لا يمتنع عن ذلك فى مشرب من المشارب العامة إذا أحرج أو اكتظت نفسه بالعاطفة وأحست بالحاجة إلى قرض الشعر ، ثم لا يحجم بعد ذلك عن نشر كل ما فاضت به بديهته الكريمة فى الصحف والمجلات والدواوين غير مفضل قصيدة على أخرى ، فكل ما نظمه حبيب إلى نفسه عزيز لديه .

عاب بعض النقدة على أبى شادى توزعه فى جهوده ، فقالوا : أنىَّ يستطيع رجل واحد أن يقوم بأعباء عشرين من خيار الرجال ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ؟ ولهؤلاء أن يستغربوا أن يقوم هذا الرجل بأعباء هذه الأعمال المرهقة المتنوعة المقاصد ، المختلفة الأغراض ، ولكنهم لو عرفوا أنه طُبع على هذا ، وليس إلى تغيير هذا الطبع من سبيل ، لخففوا بعض لومهم ولأقصدوا فى تعنيفه . وماذا يضيرهم لو حاولوا النظر إليه كما هو فى حالاته المتناقضة المختلفة جميعًا أو فى كل حالة منها على حدة ؟ ذلك أن هذا الرجل يعيش فى كل حالة من حالاته الكثيرة عيشة مستقلة واضحة المعالم والحدود ، وإن تعامى عن ذلك بعض الناس : فهو فى حالة نظمه الشعر شاعر . وفى فحصه الميكروبات رجل العلم والحياة المادية الذى لا يعرف الشعر ولا يفهم الخيال وإنما يقيس الذرات الحية بمقياسه الدقيق

الذى تتوقف عليه حياة أناس كثيرين ، وهكذا هو فى حالاته الأخرى الغريبة . فهذا رجل ذو عقلية جبارة دون شك ، يعرف كيف يضبط مشاعره ويكبت عواطفه فى مواقف خاصة ، كما يعرف كيف ينطلق معها إلى غير مدى محدود فى مواقف أخرى .

لست أنكر أن شيئًا من اللبس ربما اعتور شاعرية هذا الرجل حال النظم ، ولكن هذا لا يضيره على الإطلاق ، وعذره فى ذلك توزع فكره ، وكثرة شواغله التى من شأنها أن تهدم الفكرة وتقضى على العاطفة ، ولكنها لم تفو – ولله الحمد – على هدم هذا الشعور المتدفق تدفق السيل كما قدمنا .

قلت لك إنه سريع النظم ، فياض المادة ، غزير المعانى ، كثير الصور ، ومن هنا جاء إهماله الترصيع اللفظى الذى عاشت أجيال عالة عليه . ويخيل إلىَّ أنه يحب أن يستوعب كل ما فى الدنيا من جمال فى رشفة واحدة ، ويبدو لك هذا النهم جليًّا فى شعره جميعه ، وهو أبدًا ظمآن إلى الفن ، لا يهدأ لحظة ولا يقر برهة ، شأنه فى ذلك شأن الفنان المرهف الإحساس ، المقلقل الوجدان ، وكثيرًا ما تبدو صوره الشعرية مضطربة حيرى مبهمة فى بعض المواضيع ، وإن كانت دائمًا مشتعلة بالمعانى .

ويمتاز أبو شادى عن جمهرة الشعراء المعاصرين بأنه يعنى بالنظم

فى توافه الأشياء التى يراها المرء فى كل مكان وزمان وقلما يعيرها التفاتًا ، أو يكد ذهنه فى التفكير فيها ، فجميع الكائنات والظواهر الكونية عند أبى شادى سواسية لا اختلاف عليها ، ولا تفريق بينها ولا تفاوت ، فكلبه وقطه ودجاجه ونحله كل أولئك لها قصائد عزيزة لديه حبيبة إلى روحه ، وهو ينظر إلى هذه الأشياء نظرة الفيلسوف المحب المتفائل على الدوام .

ويتعب الناقد الأدبى الصادق إذا حاول أن يضم أبا شادى إلى مدرسة من مدارس الشعر العصرى : ذلك أن أبا شادى مدرسة مستقلة عن المدارس المألوفة ، وإن جمع فى شعره خصائص كثيرة معروفة بين المدارس المختلفة . بيد أن المدرسة التى نلحقه بها ، إذا اضطررنا إلى ذلك ، إنما هى مدرسة « الواقعيين » المعبرين عن حقائق الحياة فى صور صادقة من العاطفة والفكر المهذبين فى بعض الأحيان ، والساذجين فى أغلب الظروف . وشعراء هذه المدرسة من شأنهم أن يظهروا الكون فى جماله وقبحه وقوته وضعفه ، غير عامدين إلى زخرفة اللفظ أو رصف الاستعارات البيانية الصناعية . وقصاراهم أن يتناولوا المعنى من أقرب مورد ، فيصبوه فى قالب من اللفظ السهل المعبر .

وأبو شادى جرىء فى التعبير عن أفكاره جرأة أحسب أنها لم

تتيسر لشاعر فى هذه اللغة بعد ، فهو يطرق مواضيع لم يطرقها قبله أحد فيما نعرف ، ويتحدث عن جسد المرأة حديثًا جديدًا على هذه اللغة ، يتحدث عنه فى تصوير قوى تحدوه فى ذلك عاطفة قوية وشهوة غلابة طهرتها النظرة النفسية الخالصة من أدران المادة الدنيئة وجعلت منها عاطفة صوفية عالية ، فيها عبادة وفيها صلوات وأحسب أن أبا شادى يشبه الشاعر الإنجليزى لورانس فى هذه العبادة الجسدية الجديدة التى كادت تشيع فى أوربا هذه الأيام ، وأخذ الناس يؤمنون بها عن سبيل آثار الأدباء والشعراء . فالسعادة الجسدية والغرائز الغلابة لابد من تحقيقها . إذ الويل كل الويل فى كبتها وإغفال شأنها . بينما تسعى إلى إرضاء الحواس والمشاعر المعنوية بالدرس والاطلاع والتحصيل الثقافى . ولعل هؤلاء القوم على شىء من الصواب فيما يذهبون إليه : فالحياة الآلية التى نحياها فى هذه الأيام من شأنها أن ترهق الصحة وتغل الأبدان وتسمم الأرواح ، فلا أقل من الترويح عن هذه النفوس المأزومة والأجساد المعلولة بشىء من المتاع الصحىّ مع التقوى ، وأصحاب هذا المذهب يرون أن الكذب والرياء وادعاء الفضيلة بالباطل أمور لا تغنى ، ولكنها تؤذى النفوس وتقود إلى المرض والهزال ، كما تعود على المرء بالتسفل الخلقى الذى يجب أن يترفع عنه كى يعيش عيشة قوية صحيّة على أساس

المصارحة . ولن يتم له ذلك أبداً إلا إذا تقدم ثابت القدم ومتع فى ظلال الفضيلة والشرف جسده متعة كاملة صادقة ! ومن يقرأ شعر أبى شادى تتجلى له هذه الحقيقة الغريبة . وهذه قصيدة «الجمال العربيد» تصور أمثلة الشعر الجديد على هذه اللغة . انظر إليه كيف يتردد فى التمتع بالحبيبة . ثم يتشجع ويقدم على المتعة فى قوله :

هذا النعيم أراه رأى العين لكنى أخاف !
فيم التخوف والحياة جميعها روع أطاف ؟!
خذ يا فؤادى لا تخف ما شئت من هذى الحياة
عمر جديد يا فؤادى ما تجود به الشفاه !

ثم يتحدث بعد تمتعه . عن ظمئه الخالد وجوعه الأبدى وحنينه إلى الجمال المادىّ ، وشراهته ونهمه فى اللهو بالأشعة والظلال فى قوله :

لا الروح تشبع ، لا ، ولا قلبى بخفق يتشد
نهم على نهم وجود لا يمل ولا يحد !
حتى إذا سقط الردا ء وقد يراد سقوطه
هرع الهوى للحسن يحمى ملكه ويحوطه !

ولعل القارئ قد أحس بمتعة روحية أو مادية صادقة فى هذه القصيدة الجديدة على الشعر العربى الحديث . فما نعلم أن شاعرًا قبل أبى شادى كانت له مثل هذه الجرأة فى التعبير عن مشاعره الحسية . هذا التعبير الذى تمتزج فيه الشهوة النزعة بالفكر والخيال الناضجين ! ولن نذهب بعيدًا إذا قلنا إن هذه القصيدة هى وشقيقتها «ليلة فى المعبد» تمثلان مدرسة وعهدًا جديدين على الشعر العربى الحديث . ولا يعكف أبو شادى على عبادة الجسد وحده عبادة مجردة من التأمل . بل هو يروح يمزج حنينه إلى المادة بالقلق الصوفى المبهم كما سبق أن ذكرت لك آنفًا . وهو فى بعض الأحايين يختصم مع هذا الحنين اختصامًا عنيفًا . فيقول :

سئمت كل غرور أستعز به
واشتقت ما يشتهى الصوفى من زمنى

وهو يريد مخلصًا أن يتطهر من أدران المادة فى حالة شاذة من حالاته الصوفية فيقول :

أرسلت روحى حرة بين الأغانى والضياء
حتى أراهـا مـرة تحيا حياة الأنبياء

* * *

يتألم الناقد الأدبى لخلو شعر هذه اللغة من التحدث عن الطبيعة ، كأن طبيعة هذه البلاد من الفقر والإمحال بحيث يتناساها الشاعر ويهمل أمرها فى نظمه ، والواقع أننا لا نفكر فى اعتدال واستقامة . وإن كنا ندعى ذلك ادعاء لا تسلّم به أعمالنا الفنية .

ولقد كتب أبو شادى فأسهب عن الطبيعة فى شعره الكثير . ولعل من أسباب ذلك الإسهاب أنه ولوع بالمرأة . نزّاع إلى حبها روحًا ومادة . والمرأة جزء من الطبيعة الكبيرة . فعناية أبو شادى بالطبيعة جاءت إثر عنايته بالمرأة أو متممة لها . فقصيدته « الغروب الثائر » فيها عناية بالطبيعة قلما نلمسها عند سواه . اسمعه يقول :

يا ثورة عند الغروب لمحت فيك فؤادى
هذى دمائى استنزفت وعلى السماء حدادى
كم فى السماء شعور هذى الأرض فى ماضى القرون
كم تعكس الأقدار فى صفحاتها صور الجنون
صور العواطف وهى قتلى من جنون الحادثات
ويكاد هذا الأفق يصرخ من تصاريف الممات

وهو يمتزج بالطبيعة امتزاجًا كليًا ، وهذا شأنه فى قصيدته « الشروق الهادئ » التى يقول فيها :

صور تمحى وأخرى تراءى
فى انبثاق الضياء بين الظلال
والعصافير هاتفات بألحانى
هتاف الخشوع نحو الجمال
أمم أرسلت دعاء مجابًا
ولكل لغى وروح ابتهال
مثلت فى الطيور والزهر والنبت
وفى الماء والحصى والرمال
أنشدت دعوة الصباح فلبى
ذلك الصبح من إسار الليالى

فى هاتين القصيدتين بساطة وسذاجة فى التعبير وأمانة فى نقل الصور ، حتى يكاد المرء يحس هدوء الشروق وثورة الغروب .

وهناك جانب آخر يمتاز به أبو شادى عن سواه وهو عنايته بالأطياف والأشعة والظلال ، وقد سبق أن نوهت بقدرته على رسم الأطياف فى كلمتى التى ظهرت ضمن كتاب (أبى شادى فى الميزان) منذ عام تقريبًا . انظر إليه يقول :

أعيش ببسمة وأعد زادى أشعتها وأشربها مدامى !

ويقول :

خبأت أغانى الحب تحـــــت وسادة بسريرها
فكأنما خبأتْ بها روحًا تحن لنورها !

ويقول :

وحلى من النوار ألثمها كما
لثم الصباح النور من عينيك

ويقول :

فلثمت ألوان العزاء بوجيها
لثم الضرير النور فى الظلمات

ويقول :

النور مسكوب رشيق كالصفو فى دنيا الهموم

ويقول :

خذ قبلتى أخذ المنى من كل أطياف الربيع
فيها الحرارة والسنى فيها البشاشة والدموع

ويقول :

أبينا النور فالقبلات (م) شعلة مهجتى الحرَّى
ولم أحفل بصوت الوقت (م) أو بهواجسى الحيرى

وقوله :

وأشرب هذه الألوان (م) من نور يداعبنى

فى هذه الأبيات المقتطفة من قصائد الشاعر ترى إلى أى مدى يشغل ذهنه الضوء والظل والطيف ، ولو راجعت دواوينه لرأيت الكثير من شبيهات هذه الأمثلة ، ويظهر أن لدراسته العلمية للضوء أثرًا كبيرًا فى توجيهه فنيًا إلى هذه الناحية التصويرية الجديدة .

* * *

وبعد هذا ، فأبو شادى فنان بما فى الكلمة من معنى ، يؤمن بالفن إيمانًا صادقًا ويعتقد مخلصًا أنه من ضرورات العيش بالرغم من كونه قد نشأ نشأة علمية محضة : ذلك لأن له شخصيات مختلفة تستقل الواحدة منها عن الأخرى تمام الاستقلال كما سبق أن ألمعنا ، كما له ما له من وراثة أدبية .

وفنه هذا من الجمال ، والجمال وحده ، فكل ما جمل من المظاهر الكونية خليق بعناية الفنان والتفاته الكامل . ومن هنا جاءت عنايته بالمرأة التى يعدها صائغة الجمال ومستودع البهاء وينبوع الفتنة الخالدة . اسمعه يقول :

لبيك قد يخلد المعبود فنان

كلاهما خالق للخلد ديان

ولو عددنا حياة الحسن زائلة
فليس يرضى فناء الحسن فنان

وهو يحاول دائبًا أن يتخلص من أدران المادة ويتجرد من حواسه كيما يعيش عيشة طهر خالصة للفن وحده ، متخذًا أشعاره منى له ومثوى :

نعم منفاى أشعارى وملقى النور والنار
كأنى مذ ولدت حَيِيتُ فى يقظات قهار

* * *

وأبو شادى مكثر فى شعره ، ما فى ذلك شك ، ولكنا لا يمكننا أن نلومه على هذا الإكثار ، وإنما من حقنا أن نطالبه بشعر عال ، والمطالع لدواوينه يجدها حاوية لكثير من الشعر الجميل العالى .

ولأبى شادى محاولات جريئة فى شعر الأوبرا التمثيلية ، مثل «الزباء» و «أردشير» و «بنت الصحراء» و «أخناتون» و «الآلهة» ، وإن كنا لا نعرف مكانتها المسرحية لأنها لم تمثل على المسارح بعد ، ونحن نرجو ذلك اليوم الذى يتاح لها الظهور فيه حتى نستطيع أن نحكم عليها من هذه الناحية الفنية .

وصفوة القول إن أبا شادى شاعر بارع الصور ، محيط بكل ما فى

الكون ، ناضج النظرة ، ثاقب الفكرة ، شره العاطفة ، مرهف الإحساس إلى أبعد حد ، لا يكترث باللفظ ، ولا يعنى به عناية المتعبد ، وإنما يجعل همه العناية بالمعنى عناية دقيقة .

obeikandl.com